



بين عماليق سرمد وعماليق نتيهاو: قراءة لاحقة للسابع من أكتوبر في رواية "الثالث"

"...التي كانت في ذلك الوقت... ..

...التي كانت في ذلك الوقت... ..

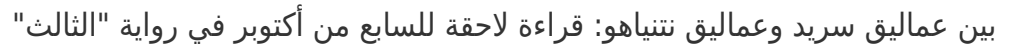
"...التي كانت في ذلك الوقت... ..

كتب يشاي سرمد هذا المشهد عام 2015، لكنه لم يكتسب ثقله الكامل إلا بعد السابع من أكتوبر 2023. فبعد الهجوم بأسابيع قليلة وقف بنيامين نتنياهو أمام كاميرات الصحفيين ليستدعي الصورة التوراتية القديمة "تذكروا ما فعله بكم عماليق" في تحريض على حرب ستتحول إلى إبادة جماعية تمتد لنحو ثلاثة أعوام. وقبل ذلك كان محمد الضيف قد أعلن بدء "طوفان الأقصى" مستحضراً هو الآخر أفق الصراع على المسجد الأقصى والهيكل وما يلتف حولهما من مخيال ديني. هكذا تقابلت في غضون أسابيع مفردات دينية متعاكسة ترسم في جوهرها البنية الرمزية ذاتها التي بنى عليها سرمد روايته.





والمملكة التي يرسمها سريد مجتمع مغلق ومقاطع يسوده "حرس الإيمان" الذي يلاحق كل مشكك. إذ غادر الأطباء والعلماء وصارت المدارس تعلم التوراة وحدها، والكتب القليلة المتبقية مكتوبة بالإنجليزية التي باتت لغة "الأغيار"



والهيكل في الرواية مسلخ لا معبد، وما إن تنتهي الطقوس حتى يجلس الكهنة إلى موائد فاخرة يشربون الخمر



بين عماليق سريد وعماليق نتيهاهو: قراءة لاحقة للسابع من أكتوبر في رواية "الثالث"

بشراة وبلحسون أصابعهم. والانتقال من سفك الدم إلى الوليمة مفارقة ساخرة تفضح الشهوة المختبئة خلف الخطاب المقدس. فالثيوقراطية كأى سلطة تنتج نخبها المنتفعة. لكن الذبح أبعد من طقس، فهو الفعل المؤسس لعلاقة الشعب بربه والمركز الذي تدور حوله المملكة، وإن توقف انهارت منظومتها الرمزية برمتها. العنف هنا شرط للبقاء، ولذلك يبلغ منطقته نهايته حين يتحول القربان الحيواني إلى قربان بشري.

عماليق: العدو الأزلي

ينهض العالم الرمزي لـ"الثالث" على كلمة واحدة هي "عماليق"، الاسم الذي يطلقه الراوي على الفلسطينيين والعرب والذي يتكرر مع مشتقاته نحو سبعين مرة في الرواية. وللکلمة في التقليد التوراتي والحاخامي ثقل خاص، فعماليق هو العدو الأزلي المطلق وتجسيد الشر الذي يأمر النص بمحو ذكره "من تحت السماء" (سفر التثنية 25). وحين تستبدل المملكة القانون العلماني بالشریعة فهي تجسد حرفياً لاهوتاً سياسياً يجعل السيادة شأنًا دينياً.

والمملكة تحفر الحد بين اليهودي والعماليقي في اللحم: "في خلفية عنق كل يهودي، تحت الجلد وبين المنكبين، توجد رقاقات تشخيص محوسبة. قبل أن يكمل الرضيع سنته الأولى، يجب على الوالدة إحضاره إلى طقس زراعة الرقاقة".

وتتضح الصورة أكثر حين نضع هذا اللاهوت داخل إطاره الأوسع، أي الاستعمار الاستيطاني. فالمؤرخ الأسترالي باتريك وولف يرى الاستعمار الاستيطاني بنية مستمرة لا حدثاً عابراً، بنية يحكمها "منطق الإزالة" أي السعي إلى إزاحة السكان الأصليين وإحلال جماعة أخرى محلهم. ومن هذه الزاوية يصير محو الوجود الجمعي هدفاً بنوياً ملازماً للمشروع. ويضيف المؤرخ لورينزو فيراتشيني بعداً نفسياً يفسر كثيراً من أدب الديستوبيا الإسرائيلي، فالمستوطن في رأيه يعيش قلقاً دائماً من الزوال و"خوفاً بارانوبدياً" من نهاية مشروعه، ويبقى مسكوناً بشبح انتقام السكان الأصليين أو "عودة المزال".

وبذلك تتضح المساحة التي تخفيها "الثالث". فالرواية تصور الإزالة كفعل ديني متطرف، وتغض الطرف عن أن الإزالة بنية سابقة على المملكة الدينية أسستها "حرب الاستقلال" عام 1948.



بين عماليق سرمد وعماليق نتياهو: قراءة لاحقة للسابع من أكتوبر في رواية "الثالث"

من هرتسل إلى سرمد: أدب البدايات والنهايات

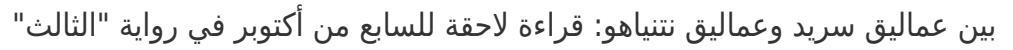
بدأ المشروع الصهيوني بيوتوبيا. ففي "ألتنوبلاند: أرض قديمة جديدة" (1902) تخيل هرتسل دولة يهودية مثالية تداوي آلام المنفى وتحقق خلاصاً دينوياً، ثم جاء ما يسميه أنطوان شلحت في تقديمه للترجمة العربية "أدب النهايات" ليقلب هذا المخيال ويتخيل الانهيار بدل الخلاص. ومن رواده عاموس كينان في "الطريق إلى عين حارود" (1984) التي تتخيل النهاية عبر انقلاب عسكري وكثيراً ما قرنها النقاد برواية سرمد. وقد صار هذا الأدب مع نهاية العقد الأول من الألفية الثالثة ظاهرة متجذرة يرى فيها شلحت شهادة حية على تحولات المجتمع، و"الثالث" تثبت ذلك حين يلحق الواقع بخيالها.

فالمك يوعاز كناية صريحة عن نتياهو أطول رؤساء الحكومات الإسرائيلية بقاءً في السلطة. وكما عطل يوعاز القضاء وحطم المؤسسات لديم حكمه ثلاثة وعشرين عاماً، قاد نتياهو مشروع "إصلاح قضائي" شق الشارع الإسرائيلي انقساماً غير مسبوق. واليمين الديني القومي الذي يحكم المملكة انتقل في الواقع من هامش الخطاب إلى قلب الائتلاف الحاكم بوجه كإتمار بن غفير وبتسليل سموتريتش، وما كان قبل سنوات فكرة متطرفة كتقديم القرابين وصلاة اليهود في ساحة الأقصى صار مشهداً يتكرر علناً.

يوتوبيا طرف وديستوبيا آخر

في الرواية يفتي الحاخام تسرويا بأن "حياة الأغيار لا تساوي ظفر خنصر يهودي"، وقد وجدت هذه الفتوى صداها في تصريحات وزراء ومسؤولين إسرائيليين خلال الحرب على غزة، كما خرج التمييز الصارم بين اليهودي و"الغويم" من نظام ثيوقراطي متخيل إلى خطابات دينية قومية حقيقية.

ويكتمل التشخيص حين نضع مشهد الافتتاح بإزاء خطاب محمد الضيف الذي أعلن هجوم السابع من أكتوبر. فالخطاب يتحدث بلغة مملكة سرمد الطقوسية عن "الطقوس التلمودية والنفخ بالبوق في ثياب الكهنة والبقرات الحمراء والهيك المزمع على أنقاض المسجد". والبقرات الحمراء فعلاً كانت قد نقلت من تكساس إلى مستوطنة في الضفة عام 2022 لتطهير الكهنة تمهيداً لإعادة البناء، كأنها "بروفة" لما تخيله سرمد مكتملاً. ويستنفر الضيف أدوات العنف



تل أبيب: أين يبدأ الانحراف؟

ثم يقع سرير في الخطأ الذي ينتقده. فكما يحمل الخطاب الديني في روايته العلمانيين مسؤولية خراب المملكة، يحمل سرير المتدينين وحدهم مسؤولية النهاية التي يتوقعها لإسرائيل. والرؤيتان تبحثان عن الذنب داخل البيت الإسرائيلي، وتتركان السؤال عن البيت ذاته معلقاً: كيف بني ومن كان يسكن المكان قبل بنائه وما علاقته بسكان الحي المحيط به؟



بين عماليق سرمد وعماليق نتيهاو: قراءة لاحقة للسابع من أكتوبر في رواية "الثالث"

ما تراه الرواية وما يفوتها

للرواية قوتها: راو مؤمن يتيح نقد المشروع الشيوقراطي من داخله، وعالم حسي كثيف بالروائح والأصوات والدماء، ومرجعية توراتية تمنحها عمقاً يتخطى السطح السياسي. لكن سرمد يحشو شخصياته وأحداثه بالرموز حتى تبدو أحياناً وسائط لرسائل جاهزة لا بشراً بكامل تعقيدهم. فخلاصات يوناتان التي تستدعي انتفاضه على المشروع تمر بلا أثر في تطوره، وتأتي لحظة قتله لأبيه نهاية مستعجلة يصعب تصديقها.

أما الإشكالية الأعمق فهي غياب الفلسطيني شبه الكامل عن رواية تقدم نفسها منحازة إلى السلام. فهو يحضر كعماليق فقط، أي كموضوع للعنف لا ذاتاً تتكلم. وهكذا تعيد الرواية إنتاج المحو الذي تنتقده في المشروع الديني، وهو المحو الذي يقوم عليه الاستعمار الاستيطاني من أساسه، فيستكمل سرمد أدبياً ما مارسه دولته عسكرياً.

تبقى "الثالث" مهمة اليوم لأنها تضع يدها على بنية قائمة لا لأنها نبوءة. وهنا يتضح الفرق بين عماليقين: عماليق سرمد استعارة روائية يكشف بها بنية ويحذر منها، وعماليق نتيهاو الذي استدعاه بعد السابع من أكتوبر لغة تبرر الإبادة في الواقع. المسافة بين الاثنين هي المسافة بين التشخيص الأدبي والتطبيق السياسي، والمحزن في لحظتنا الراهنة أن هذه المسافة تكاد تتلاشى.

الاقتباسات من الرواية مأخوذة عن ترجمتها العربية: يشاي سرمد، "الثالث"، ترجمة هشام نفاع، مدار - المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، رام الله 2021.

الكاتب: أسماء مرزوق